

الأبعاد النفسية للهنة الموريسكية

لعل

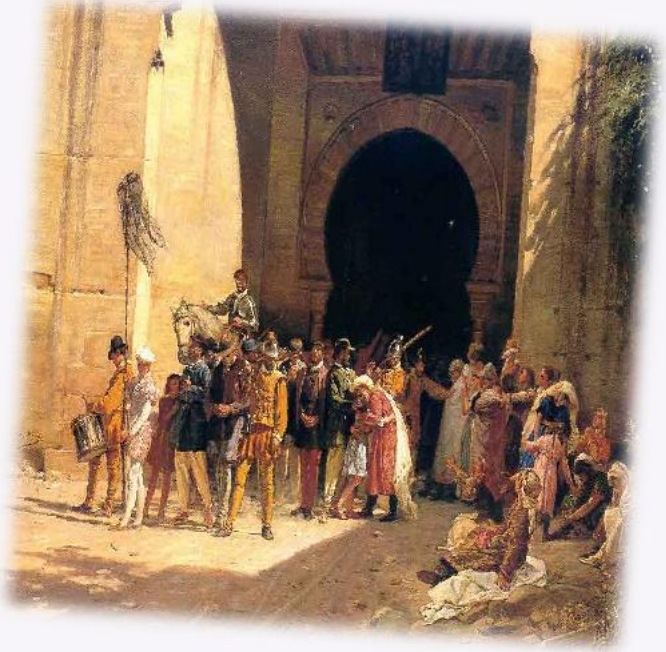
كثيراً من قضايا التاريخ لا يمكن أن تكون مجرد أوراق تسطرها أقلام ، وكتب تحوى هذه الأوراق لمجرد القراءة والاطلاع ، بل هناك من قضايا التاريخ ما تستحق أن تأخذ حيزاً من الوجود والدراسة وهدفاً للوصول إلى الحقيقة التاريخية بجميع صورها ، ومن هذه القضايا التاريخية المهمة "القضية الموريسكية" التي أصبحت مجال جدال واهتمام في وقت واحد ، وفي هذه الأوراق التالية سوف يتعرض المقال لجانب من جوانب هذه القضية ألا وهو الجانب النفسي "النفسى" ، في معنى يتبلور حول نقطة محددة وهى هل كان الموريسكيون عنصراً مقبولاً لدى الأسبان ، أم كانوا أشخاصاً يتبلور فيهم نظرية عدم قبول الآخر بكل معطياتها؟

"لا تبكى يا أمه ..، إنا ذاهبون إلى الجنة ...، إن أرضي غرناطة لن تضيق عن لحد طفل مات في سبيل الله ...، إن ازهار غرناطة لن تمتع عطرها قبراً لم يمتع صاحبها بعطر الحياة .."^(١) هذا آخر ما انشده أطفال غرناطة عند سقوطها في عام ١٤٩٢م وهى درة الوجود العربي في الأندلس ، وللتوضيح عن ماهية الدراسة يجب التعريف بالموريسكيين .

الموريسكيون: لفظ يرادف المسلمين الذين أُجبروا على التنصر في أوائل القرن السادس عشر الميلادي في ممالك اسبانيا "قشتالة" ، واراغون ، ونابارا" وتعنى "المسلمين الصغار" وهو ما أطلقه الأسبان عليهم تحقيراً لهم^(٢) .

بعد سقوط غرناطة دخل المسلمون في حقبة تاريخية جديدة تحت زعامة الملكين الكاثوليكين إيزابيلا (ت ١٥٠٤م) ، وفرناندو الخامس (ت ١٥١٦م) ، وفى إشارة منهما في بداية الحكم أوصيا إلى الحاكم الجديد بحسن معاملة المسلمين الذين أحسوا بالاطمئنان لهذه التوصية ولكن هيئات ذلك ، فقد كان الملكان يتصنعان ذلك إلى حين إبداء الرأي النهائي في أمر المسلمين ، فلم يمر الوقت كثيراً حتى قرر الملكان قرارهم الأبدي ألا وهو تنصير المسلمين وذلك تحت إلحاح من الأبحار إلى الملكين بذلك فى خطوة لمحو آثار التاريخ الإسلامى فى ظل الدولة الأسبانية الجديدة^(٣) ، وبدأت محنة المسلمين ضد العنف الأسباني الذي يهدف إلى تحقيق أهدافه بجميع الوسائل حتى أدى ذلك فى النهاية إلى قيام المسلمين بثورتهم الأولى فى عام ١٤٩٩م التى استمرت إلى عام ١٥٠١م بسبب استمرار كل من إيزابيلا وفرناندو فى سياستهما التعصبية وبدأت محنة المسلمين تأخذ فى التبلور^(٤) .

قامت الثورة الأندلسية "الموريسكية" الأولى بسبب السياسة التى أدخلها الكاردينال الجديد لغرناطة "خمنيس" الذى أخرج من جعبته كافة السبل لتنصير المسلمين بعدما أعطت له الملكة جميع الصلاحيات الكاملة لذلك ، ويمكن القول: إن محنة المسلمين بدأت فى التعقل للخطر الجديد وقامت بثورتها للحفاظ على وجودها القديم فى البلاد ، تلك الثورة التى خرجت من حي البيازين أحد أحياء غرناطة فى ١٤٩٩م والتصدي لأفعال الكاردينال العنصرية^(٥) . وقد أكد المقرئ هذه الأحداث عندما قال: "ثم إن النصارى نكثوا العهد ونقضوا الشروط عروة عروة إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر"^(٦) وانتشرت الثورة فى كل أنحاء غرناطة ، فأرسلت الملكة إيزابيلا أول جيش لإخضاع الثورة فلم يفلح فى إخضاعها حيث أخذت الثورة شكل الموجة التى تتوالى فى الأحياء المجاورة لحي البيازين ، مما دفع الملك فرناندو إلى إسناد المهمة إلى القائد الأسباني الشهير "الونزو دى



عمر بكر محمد قطب

معيد بقسم التاريخ "شعبة التاريخ الإسلامى"

كلية الآداب - جامعة المنيا

محافظة المنيا - جمهورية مصر العربية

omar.bakr10@yahoo.com

الاستشهاد المرجعي بالهقال:

عمر بكر محمد قطب ، الأبعاد النفسية للهنة الموريسكية - دورية كان التاريخية - العدد التاسع ؛ سبتمبر ٢٠١٠ ص ١٦ - ١٨ .

(www.historicalkan.co.nr)



سار الحزب الأسباني في سياسته العنصرية يهاجم الثوار الموريسكيين في كل أرجاء الثورة وبقاعها حيث كان الشغل الأكبر للدون خوان المتزعم للحزب هو ضرورة التخلص من زعماء الثورة بشتى الطرق ، سواء باللين أم بالعنف ، ولم يكتب له الفشل حيث استطاع عن طريق الدس والخديعة أن يتخلص من القائد الموريسكى "محمد ابن أمية " ، وأكهل الموريسكيون ثورتهم مدافعين عن وجودهم ، وعقيدتهم ، وتاريخهم ، وحياتهم في الأندلس ، وبالرغم من نجاحهم الكبير في أحداث الثورة إلا أن هذه النجاحات قوبلت بجانب كبير من الشدة والحزم من جانب الحزب الاسباني الذي استطاع القضاء على الثورة مع مطلع عام ١٥٧١م ، وما يدل على قوة هذه الثورة وشدها هي النتائج التي أدت إليها هذه الثورة ، وتجلت أعظم هذه النتائج في قرار الملك فيليب الثالث الذي خلف أباه في الحكم في عام ١٥٩٨م بنفي الموريسكيين من البلاد بشكل تام وجذري وضرورة طرد العنصر الموريسكى من البلاد واستئصال شافته ، ذلك القرار الذي نفذ بحذافيره منذ صدوره في عام ١٦١٠م.^(١٤)

هذه هي سطور المحنة الموريسكية في أسبانيا في القرن السادس عشر الميلادي / التاسع الهجري ، وفي تحليل أسباب هذه المحنة من الناحية النفسية وماهيتها يمكن الخروج بالتالي:

(١) إن الناحية النفسية التي دفعت الموريسكيين إلى القيام بثوراتهم ضد الأسبان تكمن في أساليب الأسبان تجاه العنصر الموريسكى بدافع اسباني يتمحور في الحقد النفسي على الموريسكيين الذين اشتهروا بالتفوق في جميع مجالات الحياة الأسبانية ، بجانب كثرة نسلهم ، وزواج بعض الأسبان أنفسهم من موريسكيات ، وذلك كله أثار حفيظة الأسبان وجعل إحساسهم بقيمة العنصر الموريسكى وقدرته يعلو ، ويدفعهم إلى ضرورة التخلص من هذا العنصر بأية وسيلة كانت .

(٢) إن الصدام والتعارض بين الاعتبارين كان أساس الصراع بين الطرفين ، فقد أعتبر النصارى عنصر مؤمن ولكن يفتقد إلى قيمة العمل من وجهة النظر الأسبانية ، وقد اعتبرت وجهة النظر هذه الموريسكيين عنصراً نشيطاً متفاعلاً متكاملًا ولكنه يفتقد إلى ثوب الإيمان الذي أراد الأسبان إلحاقه بهم ، لذلك فشل التنسيق بين الطرفين وأصبح التصادم والعنف بينهما شيئاً حتمياً لا شك فيه .

(٣) أما من وجهة النظر الإسلامية فقد اعتبر الموريسكيون أنفسهم مسيحيين في الظاهر ، ومسلمين في الباطن ، وأن ما دفعهم إلى التظاهر بالمسيحية هو محاولة الحياة في أرضهم التي ولدوا فيها ، ولا يستطيعون التفريط في هذا التاريخ بالشئ اليسير ، هذا التباين في الاعتبار عند كل من الأسبان والموريسكيين كان سبب هذا الصراع الكبير الذي استمر فيما يزيد عن القرن من الزمان .

اغويلار" في محاولة لصد الثورة والقضاء عليها ، ولكن لقي هذا القائد مصيره حتفاً على يد أحد الفرسان المسلمين وهو "الفهري الاصطبار" بعد مباراة بين الطرفين انتهت لصالح الأخير ، الأمر الذي أزعج الملك وجعله يقود حملة القضاء على الثورة بنفسه متخذاً كل الإجراءات التي تساعده في تحقيق هدفه المنشود.^(٧) وقد كان مقتل القائد اغويلار من أكثر الدوافع التي حركت الملك حيث كان يعتبره فارس اسبانيا الأول واعتبره الأسبان عامة من النصارى شهيد المسيحية في اسبانيا^(٨) ، وقد جاءت نهاية الثورة على يد الملك فرنا ندو الذي صحبه حوالي ٨٠ ألف من الرجال للقضاء على الثورة ، وبرغم الخسارة التي تعرض لها الملك إلا أنه استطاع محاصرة الثوار في أماكن ثوراتهم مثل "اندرش ، ولاخارون ، وحدود المرية" ولم يدخل عام ١٥٠١م إلا وكانت الثورة منتهية وعاد الملك ليجد الملكة قد جهزت قراراً آخرأ بخير المسلمين بين التنصر والخروج من البلاد.^(٩) ومع هذا المرسوم من الملكة هاجر من الأندلس من المسلمين حوالي ٣٠٠ ألف انتشروا في المغرب وبلاد الشام ومصر ، وتقبل الآخرون التنصر ولكن كان ذلك في الظاهر من جانبهم بهدف البقاء في موطنهم الذي استقروا فيه من زمن بعيد ، أي أن المسلمين أظهروا التنصر وأبطنوا الإسلام ، ومن تلك الفترة أطلق عليهم اسم "الموريسكيين" ذلك اللفظ الذي أطلقه الأسبان عليهم بعد إحساسهم بأنهم ليسوا نصارى خلص ، ولكنهم نصارى بموجب مرسوم الملكة إيزابيلا.^(١٠)

ومضت فترة بعد الثورة الأولى أجبر فيها الموريسكيون على التظاهر بالنصرانية وهم يبطنون الإسلام بداخلهم مروراً بعهد خليفة فرنا ندو وهو الملك كارلوس الخامس أو شار لكان "١٥١٧ - ١٥٥٥م" ، حيث كانوا ظاهرياً يعبدوا أبناءهم على يد القسيس ثم يُتبعوا ذلك بإزالة ماء التعميد النصرانية وتربية الطفل تربية إسلامية ، حتى في الزواج كان يتم عقد الإكليل ظاهرياً ثم يعودوا إلى بيوتهم ويحتفلوا بالعرس طبقاً للشريعة الإسلامية.^(١١) وقد تردد كارلوس الخامس في سياسته تجاه الموريسكيين بين الشدة واللين ، وذلك بخلاف ابنه فيليب الثاني "١٥٥٦ - ١٥٩٨م" الذي خلفه ونشبت في عهده الثورة الموريسكية الكبرى في عام ١٥٦٨م واستمرت حتى أوائل عام ١٥٧١م والتي كانت أسبابها هي أسباب الثورة الأولى ذاتها من حيث سياسة التنصير التي اتبعتها الحكام الأسبان في شكل متوال ، ولكن يضاف إلى هذه الأسباب سبب قوى جداً وهو "محاكم التفتيش" التي ظهرت في اسبانيا ، وتولت منذ ظهورها في اسبانيا في عام ١٤٨٣م محاربة جميع المذاهب ، والأديان المتناقضة مع المسيحية الكاثوليكية بدءاً من اليهود الذين لقوا منها أنواعاً كثيرة من العذاب حتى كان مصير الموريسكيين على يديها ، وقد ذاق الموريسكيون من جراء هذه المحاكم صنوف الألوان من التعذيب التي تتنافى مع تعاليم الإنسانية كلها ، مما أدى إلى حتمية نشوب الثورة الكبرى التي اشتعلت بقوة مع بدايات عام ١٥٦٨م.^(١٢) وقد تزعمها عدد من الموريسكيين الأقياء الشجعان بداية من الصباغ "فرج بن فرح" مروراً بـ "محمد بن أمية" وانتهاء بـ "مولاي عبد الله" ، وكان لكل منهم دور بارز في التصدي للحزب الاسباني الذي تمثل في رجاله ومنهم "المركز موتخار" الحاكم العسكري العام لغرناطة و"الدون خوان" اخو الملك فيليب الثاني غير الشرعي ، وقد كانت هذه الثورة ذات أثر كبير في مستقبل الموريسكيين بعد ذلك في اسبانيا.^(١٣)



إن ما يمكن قوله هنا: إن المحنة الموريسكية كانت خطراً على الأسيبان من ناحيتين، أحدهما في الأشخاص ألا وهم المسلمون ذاتهم ومعارضتهم للسياسة الأسيبانية، ولذا فقد قاوم الأسيبان هذه الناحية من خلال الاضطهاد المستمر لهذا العنصر المتمزمت ضد سياستهم في واحدة من أكبر أمثلة نظرية عدم قبول الآخر، ومن الناحية الأخرى، رأى الأسيبان في الإسلام ذاته وما يحمله من مفاهيم وتعاليم خطراً على الكاثوليكية الأسيبانية بشكل كبير يجب أن يواجه بعملية تطهير عرقي كامل لمن يحمل هذا الدين داخل اسبانيا، فتجلت المحنة الموريسكية في نظريتين توالتا تاريخياً، أولهما نظرية عدم قبول الآخر والأخرى نظرية ضرورة التطهير العرقي لهذا الآخر.

الهوامش

- (١) على الظنطاوي: "قصص من التاريخ"، دار المنارة للنشر، ط ٦، ١٤١٧-١٩٩٦، ص ٢٦١.
- (٢) ميكيل دي ايبالنا: "الموريسكيون في اسبانيا وفي المنفى"، ترجمة: جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٦، ص ٢٤.
- (٣) محمد عبد الله عنان: "نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين"، الهيئة المصرية للكتاب، ٢٠٠١، ص ٣٠٨.
- (٤) عادل سعيد بشتاوي: "الأندلسيون المواركة"، ص ١٢٤.
- (٥) نفس المرجع، ص ١١٤.
- (٦) شهاب الدين احمد المقرئ التلمساني ت ١٠٤١هـ، "نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب"، تحقيق: إحسان عباس، ج٤، دار صادر للطبع والنشر، بيروت، ١٩٦٨، ص ٥٢٧.
- (٧) اسعد حومد "محنة العرب في الأندلس"، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ٢، ص ٢٧٠.
- (٨) واشنطن ايرفنج: "أخبار سقوط غرناطة"، ترجمة: هاني يحيى نصري، دار الانتشار العربي للنشر، ص ٣٥٨.
- (٩) اسعد حومد: المرجع السابق، ص ٢٧٧.
- (١٠) عادل سعيد بشتاوي: الأندلسيون المواركة، ص ١١٨.
- (١١) شكيب ارسلان: "خلاصة تاريخ الأندلس إلى سقوط غرناطة"، مطبعة المنار، مصر، ١٩٢٥ م - ١٣٤٣هـ، ص ٣٥٢.
- (١٢) محمد علي قطب: "مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس"، ص ٧٨.
- (١٣) عادل سعيد بشتاوي: الأندلسيون المواركة، ص ١٥٣.
- (١٤) محمد عبد الله عنان: "نهاية الأندلس"، ص ٣٩٥.

(٤) وإذا ما تطرق المقال إلى الناحية النفسية الأسيبانية فإنها تتجلى في أفعال الحكام الأسيبان ومواقفهم ضد الموريسكيين، فقد وقع الملكان الكاثوليكيان إيزابيلا وفرنا ندو تحت سيطرة الأبحار، وخضعوا لرغباتهم في نفس الوقت الذي اشعر الأبحار الملكين بأنهما حماة المسيحية والكاثوليكية في اسبانيا، بل في أوروبا من الإسلام، وأن على حامى المسيحية الدفاع عن مسيحيتهم، والقضاء على العناصر المعادية إلى هذا المعتقد وإلى هذه الديانة بجميع أشكال العنف، مما دفع الملكين في توجيه سياستهم إلى القضاء على الوجود الإسلامي ليشعرا بقيمتها بعدهما ملكي اسبانيا الجدد، حتى إن الأبحار وضعوا لهما نظرية تقول "إذا أردت إن تكون ملكاً صالحاً يجب إن تكون كاثوليكياً صالحاً"، وهكذا ربط الملكان وجودهما - باعتبارهما ملكي اسبانيا - بعدم وجود المسلمين.

(٥) أما بالنسبة للملك كارلوس الخامس، فتدده في السياسة التي يتبعها تجاه الموريسكيين بين الشدة واللين يشرح - بالدرجة الأولى - الدوافع النفسية والشخصية لهذا الملك، ففي الوقت الذي يصدر فيه قراراً بمنع التخاطب باللغة العربية من جانب الموريسكيين... يسمح لهم بالتخاطب مقابل ضريبة من المال يدفعونها له، ومن ثم فإن تحليل هذه الأفعال الكارلوسية تفسر مدى تناقض هذه الشخصية من جانب، ومدى عدم اقتناع الملك في قرارة نفسه بأن الموريسكيين عدو يجب التخلص منه من جانب آخر، بل أنه تقبلهم كثيراً وأصدر قرارات لم يستعمل الشدة والقسوة في تنفيذها ضدهم.

(٦) أما حكم كل من الملكين فيليب الثاني وابنه فيليب الثالث، فقد تجلى الجانب النفسي بشكل كبير في أفعالهما ضد الموريسكيين، ففي نفس الوقت التي اشتعلت فيه الثورة الموريسكية الكبرى في اسبانيا كانت الحركة البروتستانتية تظهر وبقوة في أوروبا، وتهدد الوجود الكاثوليكي في اسبانيا وأوروبا، ومع فشل الملكين في تقويض هذه الحركة الجديدة، وعدم التصدي لها في حركتها السريعة، استعاضوا هذا الفشل تجاه الموريسكيين، أي أنهما اتخذوا أفعالهما تجاه الموريسكيين شفاءً لغليل فشلها في أوروبا والحركة البروتستانتية.

ونهاية يطرح التساؤل نفسه هل كان الصراع بين الأسيبان والموريسكيين صراعاً دينياً بحتاً، أم توجهته أوجه صراع اجتماعي، ونفسي، وعقدي، وبشرى آخر؟ وهل كانت العلاقة بين الأسيبان والموريسكيين علاقة تضاد بين جنسين بشريين أم تضاد بين فكريين وثقافيتين؟



من أبحاث الأستاذ عمر بلكر:

- "فتنة خلق القرآن بين الخلافة والمعارضة".
- الاشتراك في بحث بعنوان "الثورة الجزائرية".
- "الثورات الموريسكية بعد سقوط غرناطة".